المحاضرة الأولى :

الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث والمعاصر

تمهيد:

يتجاوز لفظ "قضية" المعنى المعجمي المتعارف عليه إلى دلالات متعددة، ويمكن القول إن المقصود هنا بـ " القضية" أو "القضايا" كل أمر ذي قيمة يشكل اهتماما مشتركا بين أعضاء المجتمع بحيث يكون تحقيقه هاجسا اجتماعيا وسياسيا يقتضي من الجماعة التضحية بالنفس والنفيس والنضال المستميت مهما كان الثمن، ولعل من الأولويات التي أولتها الشعوب اهتماما قضية "الحرية"، إذ لا حياة دونها، لذلك فإن شعوبا كثيرة في العالم ضحت بخيرة شبابها وأموالها وخيراتها من أجل تحرير أوطانها وشعوبها من الاستعمار والعبودية فثمنها باهظ ، وهو ما عبر عنه "أحمد شوقي" (1886–4932) حيث قال:

وللحريَّة الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرجة يُدقُّ

وفي التاريخ المعاصر أمثلة كثيرة على شعوب انتفضت وأعلنت ثورتها من أجل الحرية بداية بالثورة الفرنسية (1789) التي رفعت شعارات لم تلتزم بها في معاملة غيرها من الشعوب فيما بعد كالحرية والأخوة والمساواة، والثورة الروسية (1917)بقيادة فلادمير لينين وليون تروتسكوي التي أطاحت بالحكم القيصري.

بالإضافة إلى الثورة الفلسطينية التي لا تزال إلى يومنا هذا، ولا يزال الشعب الفلسطيني الأبي يعاني مظالم الاحتلال الصهيوني من قمع وقتل وتعذيب وتزييف للحقائق التاريخية.

وتعد الثورة الجزائرية واحدة من بين أكبر ثورات العالم الحديث ، ولعلها أكبر ثورة عرفها العالم العربي والإسلامي لما قدمته من دروس للعالم في التضحية وحب الوطن، ولطبيعة العدو والذي تحالفت معه عدة قوى في العالم ناهيك عن قوته، ورغم ذلك انتصر شعب أعزل آمن بقضيته إيمانا لا شائبة فيه من أجل تحرير وطنه مهما تطلب الأمر .

الثورة في جوهرها فكرة خلاقة ، تصدر عن وعي حقيقي من مبتكريها وتتحول انفجارا عظيما يلتهم لهيبه كل ظالم جاء ليستعبد الناس وينهب وطنهم، هذا الانفجار الذي أعلنه

قادة الثورة الجزائرية ليلة الفاتح من شهر نوفمبر سنة 1954، وقد لبى الشعب الجزائري النداء أفرادا وجماعات بمختلف الطبقات ومن شتى الاتجاهات.

لكل ثورة رجالاتها وقاداتها الذين يخططون لها وينفذونها ويوجهونها الوجهة السليمة ولكل ثورة شعراؤها وأدباؤها وفنانوها الذين يخلدون مآثرها لتتداولها الذاكرة عبر أجيال، وربما يعد " هوميروس" الشاعر الإغريقي أول من خلد بطولات شعبه في الإلياذة ، في شعر ملحمي يتألف من ستة عشر ألف بيت موزعة على أربعة وعشرين نشيدا، كان ذلك بين القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد.

لذلك لا يمكن تصور ثورة بدون شاعر أو شعراء يدونون مآثر أبطالها، وقد كان للثورة الجزائرية شعراء عدة من الجزائر ومن خارجها، يأتي في مقدمتهم جميعا " مفدي زكريا" (1908-1977) شاعر الثورة الجزائرية وصاحب النشيد الوطني الجزائري "قسما" ، و"إلياذة الجزائر"، وصاحب المواقف المشرفة في الثورة.

وقف الشعر العربي الحديث شاهدا حيا على بطولات الشعب الجزائري ؛ إذ أصبحت الثورة التحريرية مادة إبداعية يتفنن في تشكيلها الشعراء والأدباء العرب، وامتزج فيها البعد القومي بالبعد الإنساني، وسنقف عند أهم الشعراء العرب الذين وقفوا إلى جانب الثورة الجزائرية:

1-نزار قباني:

نزار قباني من الشعراء النقاد المعاصرين ، جدد في القصيدة العربية شكلا ومضمونا ، فكان واحدا من الذين ثاروا ضد قداسة عمود الشعر، استجابت قصائده للواقع بكل انعكاساته فجاء شعره تعبيرا صادقا لقضايا الأمة العربية، عرفت قصائده كثيرا من الجدل لجرأتها، وقد اتخذ من المرأة موضوعا لقصائده، حيث يرى من خلالها المجتمع بكل تقاطعاته الاجتماعية والثقافية والسياسية....، ومن القصائد الجميلة التي كتبها عن المرأة المناضلة، قصيدته الشهيرة عن المناضلة الجزائرية " جميلة بوحيرد" وهي رهن الاعتقال في سجون المحتل الفرنسي بالغرب الجزائري داخل زنزانة منفردة في ظروف قاسية من أجل استنطاقها، يفتتح الشاعر قصيدته بالتعريف بها وتصويرها يقول:

الاسم جميلة بوحيرد

رقم الزنزانة تسعونا

في السجن الحربي بوهران

والعمر اثنان وعشرون

عينان كقنديل معبد

والشعر العربي الأسود

ثم ينتقل لبيان ظروف حياتها داخل الزنزانة، مبينا صبرها وإيمانها إذ لا شيء ليواسيها سوى كتاب الله الذي يزيدها ثباتا وعزيمة، يقول:

كالصّيف... كشلال الأحزان

أبريق للماء وسجّان

ويد تنضم على القرآن

وامرأة في ضوء الصبح

تسترجع في مثل البوح

آيات محزنة الأرنان

من سورة مريم والفتح

برع "نزار قباني" في تصوير معاناة " جميلة بوحيرد" داخل الزنزانة وما تتعرض له من تنكيل وتعذيب موظفا لغة الجسد الأنثوي التي تميز أشعاره بطريقة ايجابية ليبين غطرسة هذا العدو الذي كان يدعوا في ثورته للحرية والأخوة والمساواة، وفي الأخير يبين انتصار "جميلة بوحيرد" على جلادها رغم ما تعرضت له ، ما جعلها أعظم واكبر من " جان دارك" الفرنسية البطلة القومية التي تسكن وجدان الفرنسيين لما حققته من انتصارات في الحرب بين فرنسا والانجليز ، يقول :

الإسمُ: جميلة بوحيرد

تاريخٌ: ترويه بلادي

يحفظُهُ بعدي أولادي

تاريخ امرأة من وطني

جلدت مقصلةَ الجلاَّدِ

إمرأةٌ دوَّختِ الشمسا

جرحت أبعادَ الأبعادِ

ثائرةٌ من جبل الأطلَس

يذكرها الليلكُ والنرجس

يذكرُها .. زهرُ الكبَّاد

ما أصغرَ جان داركَ فرنسا

في جانب جان دارك بلادي

1- سليمان العيسى:

إذا كان مفدي زكريا شاعر الثورة في الداخل فإن سليمان العيسى شاعرها في الخارج ، إذ استطاع أن ينظم سبعا وثلاثين قصيدة في الثورة التحريرية يصور فيها جرائم فرنسا وصمود الجزائريين ، من أهمها " ملحمة الجزائر"، و "صلاة لأرض الجزائر"، يقول:

روعة الجرح فوق ما يحمل اللَّفظ ويقوى عليه إعصار

فَوْقَ شِعْري وفَوْقَ مُعْجِزةِ الألحان هذا الذِّي تخط الجزائر

نظم سليمان العيسى قصيدة توثق لاستشهاد البطل " زيغود يوسف" (واحد من رجالات الثورة في الشرق ومن جماعة 22 التي تولت تفجير الثورة) ، إذ كان لاستشهاده سنة 1956 وقع كبير في نفوس الجزائريين، بحكم مسؤوليته كقائد على الولاية الثانية، استشهد البطل بعد معركة طاحنة وغير متكافئة بين جيش العدو والشعب الجزائري، يقول الشاعر:

صَمتٌ على الوادي يروع الوادي

وسحابة من لوعةٍ وحِدادِ

أرسى على الهضَبات ريشُ نسورها

وتمزقت من بعدِ طول جِلادِ

هدأ الوميض.. فلا أنينُ شظية

يُصمي، ولا تكبيرةُ استشهادِ

إلى أن يقول:

وتجيب من وكر النسور رصاصةٌ

لتُصِرَّ,, هذي تربتي وبلادي

لن يُسلمَ الوادي ثراه لغاصبٍ

إلا على جثث .. على أجسادِ

يضيء الشاعر جانبا من حياة "زيغود يوسف" البسيطة، وكيف لبى نداء الثورة ببسالة ودون تردد، يقول:

الصامدُ المقدودُ من لهبٍ

الفارس العربيُّ

عرفته أرض المجد حَدَّادَا

في ركن حانوتِ

إلى أن يقول:

وسرى نداء الثأر رعّادَا

وأهابت الثورهْ

وتكلمت آلامنا غورًا وأَنجادَا

فإذا الكَمي .. فِراشه صخرهْ

وإذا هو الثورهْ

سيسير مثل رفاقه الدَّرْبا

يثني الشاعر على البطل وتاريخيه المشرف، ورأى أن في موته مستشهدا ميلاد لشعب رائع:

يا شمْخة التاريخ في أوراسنا

يا نبع ملحمتي بثغر الحادي

أتموتُ ؟ تاريخ الرجولة فِزْيةٌ

كبرى إذن ، ووضاءةُ لأمجادِ

أتموتُ ؟ كل حَنِيَّةٍ بجزائري

ميلاد شعب رائعٍ

ميلادي..

3- بدر شاكر السياب:

نظم " بدر شاكر السياب" خمس قصائد في الثورة الجزائرية بداية بقصيدة " رسالة من مقبرة" والمقبرة يقصد بها بغداد، يقول:

من قاع قبري أصيح

حتى تئن القبور

من رجع صوتي و هو رمل و ريح

من عالم في حفرتي يستريح

...

من عالم في قاع قبري أصبح

لا تيأسوا من مولد أو نشور

وجه السياب قصيدة إلى المناضلة " جميلة بوحيرد" عنوانها :" إلى جميلة"، أبرز فيها خصالها وأثنى عليها، يقول :

الله ، لولا أنت يا فادية

ما أثمرت أغصاننا العارية

أو زنبقت أشعارنا القافية

إنا هنا... في هوَّة داجية

ما طاف لولا مقلتاك الشعاع

يوما بها نحن العراة الجياع!

وآخر قصائده للجزائر كانت قبيل وفاته نظمها بمناسبة استقلال الجزائر بعنوان: " ربيع الجزائر" (1962)، إذ يشاطر فيها الشعب الجزائري فرحته.

نظم هؤلاء الشعراء وغيرهم من كافة أقطار الوطن العربي في الثورة الجزائرية، وقد حاول الدكتور "عثمان سعدي" جمع هذه القصائد في مؤلف واحد بعنوان " الثورة الجزائرية في الشعر العربي" ، يقع في ثلاثة مجلدات ، المجلد الأول: الثورة الجزائرية في الشعر العربي: العراق (255 قصيدة، 107 شاعرا) أمثال : بدر شاكر السياب، محمد مهدي الجواهري، عبد الوهاب البياتي، إبراهيم الوائلي وغيرهم .

المجلد الثاني: الثورة الجزائرية في الشعر العربي: سوريا (199 قصيدة، 64 شاعرا) أمثال سليمان العيسى، محمد الحريري، نزار قباني وغيرهم .

المجلد الثالث: الثورة الجزائرية في الشعر العربي: السودان (15 قصيدة ، 10 شعراء) كبار أمثال: عمر الصديق، الهادي آدم وغيرهم .

لقد دعم الشعراء العرب الثورة الجزائرية واعتبروها أعظم حدث عربي مسح أثار هزيمة الجيوش العربية بفلسطين سنة 1948 فتغنوا بأحداثها وأبطالها وأماكنها.